مظاهر الحضارة المصرية
في عصر المماليك

obeikandi.com

obeikandl.com

مظاهر الحضارة المصرية في عصر المماليك

ازدخرت الحياة الثقافية في مصر وصعيدها في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك لعوامل متعددة ، منها أن مصر أصبحت في ذلك العصر نقطة الارتكاز ، ومركز الإشعاع ، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار، ومما جعل مصر محور للنشاط العلمي وهو ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي التتار في العراق والشام ، وعلى أيدي النصارى في الأندلس، إذ تحول كثير من علماء هذه البلاد إلى مصر ، واختاروها مقرًا لإقامتهم ونشاطهم العلمي.

وقد اهتم سلاطين الأيوبيين بنشر العلوم الإسلامية ، ورعاية العلماء، فكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب شديد الكلف بعلوم الدين ، وأنشأ بعض المدارس الشهيرة ، مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية، وكان حريصًا على سماع الدروس من أفواه الأئمة، ويأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث الشريف ، وسار العزيز عثمان على نهج أبيه ، فسمع الحديث الشريف بالإسكندرية من علمائها المشهورين، كما كان العادل أبو بكر أيوب شديد الحب للعلماء ، حتى قيل إن الإمام فخر الدين الرازي

صنف له كتابه «تأسيس التقديس» ، وكذلك أمضى الملك الكامل محمد حياته في مصر شغوفًا بالعلم ومشجعًا للعلماء ، وكان معظمًا للسنة النبوية، ويقوم على نشرها ، والتمسك بها.

وسار سلاطين المماليك على سياسة أسلافهم ، فاهتموا بدور العلم، وشجعوا العلماء ، حتى فاق تشجيعهم للعلماء سلاطين بني أيوب، ووجّه بعض الأمراء عنايتهم إلى نشر العلوم الإسلامية كالفقه والحديث واللغة والتاريخ ، بل كان منهم من يقوم بالتدريس لطلبة العلم وكفالتهم، وقاموا بإنشاء كثير من دور العلم والمكاتب خاصة في بلاد الوجه القبلي، وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين، كما انتشرت في صعيد مصر – زمن الأيوبيين والمماليك – ظاهرة التدريس في المساجد، وكان يطلق على المدرس داخل المسجد لقب «المفيد» ، وكان التدريس في المساجد لا يقتصر على العلوم الدينية ، بل تخطاه إلى غيره من العلوم كالطب وغيره.

وكانت المدارس بمثابة كليات عالية تدرس بها العلوم الإنسانية التي ارتبطت بأصول الدين كالفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة، فضلًا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق، أو العلوم العلمية كعلم الفلك ، وعلم الهندسة والكيمياء والطب، وكان تعيين المدرسين في وظائف

التدريس بالمدارس يتم بأن يحصل الطالب على إذن من كبار العلماء الذين تولوا تدريسه ، والإذن عبارة عن شهادة أو إجازة للدارس بالسماح له بالتدريس ، وإذا كان المدرس هو الذي يقوم بتدريس مادة معينة تخصص فيها ، فإن المعيد كان يساعده وذلك بإعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة لشرح الصعب وتبسيطه.

وقد ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب، وقد كان للأوقاف الخيرية أكبر الأثر في تمكين هذه الدور من القيام برسالتها.

ومن الملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطًا دينيًا منقطع النظير، وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين وعلمائه ستارًا يخفي هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب، وما دام المماليك مسلمين يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويعمرون المساجد، فهم إذا حكام صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيرًا في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم.

وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن جزءًا كبيرًا من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهًا لخدمة المذهب السني ، ومحاربة المذهب الشيعي، ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك ، وقد لجأ سلاطين المماليك إلى استخدام العنف أحيانًا لكبت الشيعة، وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس باتباع المذاهب السنية الأربعة ، وتحريم ما عداها ، كما أمر بألا يولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ، ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن متبعًا لأحد هذه المذاهب.